

رحلة نحوية مع أستاذى الكبير شوقى ضيف

د. مازن المبارك

دأب الدكتور شوقى ضيف فى هدوء العالم وتواضعه على إخراج كتبه الأدبية عن الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، والفن ومذاهبه فى النثر العربى، وسلسلته الذهبية فى تاريخ الأدب العربى التى أحاطت بعصوره المختلفة، فكان لهذه السلسلة من الشهرة والانتشار، ما لم يكن لغيرها من كتب تاريخ الأدب العربى فى العصر الحديث.

ولم يشغله التأليف والبحث فى الأدب وتاريخه عن التأليف فى البلاغة وتاريخها ولا عن البحث والتحقيق فى النحو العربى، فقد حقق فى عام ١٩٤٧ كتاب «الردّ على النحاة» لابن مضاء القرطبى (ت ٥٩٢هـ) وقدم له بدراسة مسهية بين فيها أغراضه، وساق أمثلة نحوية كثيرة طبّق فيها عملياً ما دعا إليه ابن مضاء.

ولم يُخفِ الدكتور ضيف حماسه لأفكار ابن مضاء، ورغبته فى «تجديد النحو» الذى أرهق الناس، وكلفهم من أمرهم عسراً بالتزام فكرة العامل وإلحاحهم عليها، واتخاذها قاعدة أصيلة فى تحليل الأثر النحوى فى الكلام، وما جرّه ذلك كله من تعقيد على موضوعات النحو وتصنيفها.

وقد تتلمذت على الدكتور شوقى ضيف، حين درست كتابه هذا، وألقيت عنه محاضرة على طلاب السنة الثالثة من قسم اللغة العربية بجامعة دمشق - وكنت واحداً منهم - بتكليف من أستاذى سعيد الأفغانى.

وأوفدت إلى مصر لمتابعة الدراسات العليا، وكان الدكتور ضيف واحداً من الأساتذة المحاضرين على طلاب الدراسات العليا، بجامعة القاهرة، ثم وضعت تحت إشرافه للتحضير لدرجة الماجستير، فعملت معه سنوات، أخرجت فيها كتاب «الإيضاح فى علل النحو»

للزجاجي (- ٣٣٧هـ) مع دراسة عن الكتاب وصاحبه، وما يتصل بالعلة النحوية وتطورها^(١). وتفضل أستاذي الدكتور ضيف، فكتب مقدّمة الإيضاح الذي صدر في القاهرة عام ١٩٥٩، وعاد فيها مرة أخرى إلى نقد مسالك النحويين في التعليل، ورأى جمهور العلل ضرباً من الفلسفة غير العملية، وليس وراءها أيّ طائل نحويّ، ولكنه على إيمانه بأن النحو ينبغي أن ييسر على الناشئة، وأن تخرج منه العلل المعقّدة، كان يرى أن الواجب على المتخصصين أن يعنوا بدراسة النحو في صورته القديمة ويحيوا آثاره، ليتبينوا تطوّره وما شفع به هذا التطور من جهود عقلية خصبة، وليستطيعوا الاضطلاع بما يريدون من تيسير الحو على علم وبصيرة.

واستمرت رحلتي مع أستاذي الدكتور ضيف حين أشرف عليّ وأنا أعدّ رسالتي لنيل درجة الدكتوراه عن الرمانى النحوى في ضوء شرحه لكتااسيبويه^(٢).

ولقد أفدت في تلك السنوات المباركة من أدب الدكتور ضيف وخلقه، وعلمه أيّما إفادة، إذ كنت كثير التردد عليه، شديد الصلة به، السه في بيته، وأرافقه في الطريق، وأحضر مناقشاته لزملائى الكثيرين الذين كانوا يترددون عليه لعرض أبحاثهم ورسائلهم، وكان يشركنى في الحديث والمناقشة، ويضفى عليّ من رعايته وحبه مالا أنساه.

وإن من حقّه عليّ اليوم أن أذكر ما زادنى حباً له وإعجاباً بخلقه، جئته مرة على استحياءٍ مستأذناً أن يسمح لى بزيارة بعض أعلام النحو واللغة فى مصر... وكنت خائفاً أن يثور، أو أن يفسّر استئذانى على غير ما أردت، فإذا هو يبتسم ويقول: يا مازن اذهب إلى من شئت، وبلّغه تحيتى، وقل له: شوقى أرسلنى إليك لأفيد من علمك، وإن شئت أعطيتك بعض بطاقاتى لتقدمها إلى من تريد منهم.

وبذلك فتح لى أبواباً، لم أكن لأصل إليها، فكانت لى جلسات مع ثلاثة من أعلام النحو واللغة رحمهم الله، وهم الأستاذ إبراهيم مصطفى صاحب «إحياء النحو» والأستاذ الشيخ محمد على النجار عضو مجمع اللغة العربية، وشقيقه الدكتور عبد الحليم النجار الذى كان يستقبلنى فى جلسة أسبوعية، لم تنقطع إلا يوم غادرت القاهرة. وكنت أعود ألى مجلس أستاذى الدكتور ضيف وأناقشه فيما سمعت من أولئك العلماء، فيصحح لى الفهم بكثير من السعادة والسرور. وعدت إلى دمشق عام ١٩٦٠، وانقطعت الأسباب المادية بينى وبين أستاذى، وبقيت أسباب روحية تذكرنى به وتشدنى إليه. وعدت إليه فى كتابه عن «المدارس النحوية» الذى صدر عام

(١) أصدرت ذلك فى ثلاثة كتب، أحدها: الإيضاح فى علل النحو، وثانيها: الزجاجى حياته وآثاره ومذهبه، وثالثها: النحو العربى (بحث فى العلة النحوية وتطورها).

(٢) صدرت طبعته الأولى عن جامعة دمشق عام ١٩٦٠.

١٩٦٨ ثم عدت إليه ثانية في كتابه «تجديد النحو»، الذى صدر عام ١٩٨٢ أما «المدارس النحوية» فبحث جامع في المذاهب النحوية يذكرنا بدراسات الدكتور ضيف في تاريخ الأدب، وما تتصف به من شمول في التأريخ، وهذوء في العرض، ووضوح في الفكرة واستقلال في الرأى. يؤرخ الدكتور ضيف في كتابه مسيرة النحو منذ بداياته الأولى إلى قيام مدارسه... يتناولها واحدة بعد الأخرى، ناشراً تاريخها مترجماً لأبرز أعلامها، منتهاً في القرن التاسع للهجرة بالجلالسيوطى (ت - ٩١١هـ).

ولعل أبرز ما يتصف به كتاب «المدارس النحوية» - على كثرة فوائده - أنه كتاب جامع يحيط من تاريخ النحو، ونشأة مدارسه بما لا يحيط به كتاب آخر من كتب تاريخ النحو ومدارسه، ويعرف كثيراً من أئمة النحاة، وأنه هادى الأسلوب، فلا تبجح ولا ادعاء، ولا ثورة ولا عنف، وأن آراء صاحبه واضحة صريحة وأبرز تلك الآراء:

١ - يرجع السبب في وضع النحو إلى عوامل دينية وقومية عربية واجتماعية وعقلية، فأما الدينية ففي الحرص الشديد على أداء نصوص الذكر الحكيم أداءً فصيحاً سليماً، وأما القومية العربية ففي اعتزاز العرب بلغتهم وخشيتهم عليها من الفساد، وأما الاجتماعية ففي حاجة الشعوب المستعربة إلى من يرسم لها أوضاع العربية في إعرابها، وتصرفها حتى تتمثلها تمثلاً سليماً مستقيماً وتتقن النطق بها نطقاً على الوجه الصحيح، وأما العقلية ففي رقى العقل العربى وغنى طاقته الذهنية غموا أعدّه للنهوض برصد الظواهر اللغوية، وتسجيل الرسوم النحوية تسجيلاً تطرد فيه القواعد، وتنظم الأقيسة انتظاماً هياً لنشوء النحو ووضع قوانينه الجامعة.

٢ - إن مبادئ النحو وأوليائه تعود إلى جيل ابن أبى إسحاق الحضرمى (ت - ١١٧هـ) لا إلى جيل أبى الأسود الدؤلى (ت ٦٩هـ).

٣ - إن النحو وأصوله وقواعده الأساسية تكون نهائياً على يد سيبويه (ت ١٨٠هـ)، وأستاذه الخليل (ت ١٧٠هـ)، وكأنهما لم يتركا للأجيال التالية سوى خلافات فرعية تتسع وتضيق بحسب المدارس وبحسب النحاة.

٤ - إن النشاط النحوى فى الكوفة لم يبدأ على يد الرؤاسى (- ١٨٧هـ).

٥ - معاذ الهراء (ت ١٨٧هـ) لم يضع علم الصرف.

٦ - المازنى (ت ٢٤٩هـ) هو الذى فصل علم التصريف عن النحو، وصنف فيه مصنفات قيمة، نظم فيها قواعده ومسائله، وجعله علماً مستقلاً بأبنيته، وأقيسته وقمارينه، وهو الذى فتح الباب فيه على التمارين غير العملية.

٧ - الخليل وسيبويه فتحا باب التمارين غير العملية في النحو.

٨ - إن كتاب سيبويه سجل لأصول النحو وقواعده ولظواهر التعبير العربي التي أتقنها سيبويه فقهاً وعلمياً وتحليلاً. وجمهور ما يصوره سيبويه في كتابه من أصول النحو والتصريف وقواعدهما إنما هو من صنع تاذة الخليل، ولا ننكر ما لسيبويه في العلمين من إكمال وتتميم. وكتاب سيبويه لا يعلم العربية وقواعدها فحسب، بل يعلم أيضاً أساليبها ودقائقها التعبيرية.

وفيه اتساع في التعليل وكثرة في القياس لا تعلم النحو والصرف فحسب بل تعلم معها العقل.

٩ - إن الخليل بن أحمد (ت ١٧٠هـ) هو المؤسس الحقيقي لمدرسة البصرة خاصة ولعلم النحو عامة، وإليه تعود نظرية العامل وما يتصل بها من سماع وتعليل وقياس، وهو ذو عقل ثرى أوثق دقة في الاستنباط تذهل كل من يقف على وضعه لعروض الشعر، ورفع له لصرح النحو، ورسمه المنهج الذى ألف عليه «معجم العين»، واختراعه لعلامات الضبط (الفتحة والضمة والكسرة) التى لا تزال نستعملها، وفضله فى وضع قوانين الإعرال والقلب، وامتياز به بحس لغوى دقيق مكّنه من فقه لغة العرب وأسرارها ودقائق عباراتها.

١٠ - إن المدرسة البصرية هى التى وضعت أصول النحو العربى وقواعده، وأرست بنيانه الذى مازال عامراً إلى اليوم، وذلك بفضل ما يتصف به العقل البصرى من دقة وعمق واستعداد، لتسجيل الظواهر النحوية ووضع قواعدها، مما لم يتح مثله للعقل الكوفى.

١١ - المبرد (ت ٢٨٥هـ) آخر النابيين من نحاة المدرسة البصرية، والسيرافى (ت ٣٦٨هـ) خاتمة نحاتها المهّمين، بل به تنتهى مدرسة البصرة، وهو نحوى يتوسّع فى التعليل توسعاً أسعفه فيه عقله الجدلى الخصب.

١٢ - إن أبا عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ) راوية ثقة كثير السماع، وهو أقرب إلى أن يكون من اللغويين والقرّاء منه إلى أن يكون من النحويين.

١٣ - أبو الحسن الأخفش (ت ٢١٥هـ) أكبر أئمة النحو البصرى بعد سيبويه، وهو الذى فتح باب الخلاف عليه، كما فتح الباب للغات الشاذة والقراءات الشاذة، يدافع عنها ويحتج لها. وهو الملهم الحقيقى للكسائى (ت ١٨٩هـ) وغيره من أعلام الكوفيين، وكانت بعض آرائه أسساً بنيت عليها فيما بعد مدرسة الكوفة، ثم المدارس المتأخرة المختلفة، فقد كان حادّ الذكاء ثاقب

الذهن، فخالف أستاذه سيبويه في كثير من المسائل، وحمل ذلك عنه الكوفيون، ومضوا يتبعون فيه، فهو بحق أستاذ المدرسة الكوفية.

١٤ - إمام الكوفيين بحق هو الفراء (- ٢٠٧هـ)، وهو أول من توسع في تخطيط بعض العرب، وعنف في إنكار القراءات الشاذة. وهو الذي أعطى النحو الكوفي صيغته النهائية، ولولاه لما استقام نحو الكوفة، ولا وضع منهاجه، ولا صحت حدوده، ولا فصلت مصطلحاته. والفراء هو الملمه الحقيقي لما جاء بعده من البصريين الحمل على بعض القراءات الشاذة، وهو الإمام الحقيقي لمدرسة الكوفة، وإن كان الكسائي قد سبقه فلم تكن له دقة عقله وعمق نظره وحدة ذهنه.

١٥ - الكسائي والفراء ستحدثنا المدرسة الكوفية المتميزة باتساع الرواية، وبسط القياس وقبضه، ووضع بعض المصطلحات. وبها يبدأ النحو الكوفي، لأنها هما اللذان رسما صورته، ووضعاً أسسه وأصوله، وأمداه بحذقها وفطنتها لتكون له خواصه التي استقل بها عن النحو البصري.

١٦ - ليس صحيحاً ما زعمه «فايل» من أن نحو الكوفة لم تكن له مدرسة خاصة.

١٧ - لم يكن دافع الفراء وأمثاله ممن يردون بعض القراءات - وهي لا تعدو حروفاً معدودة - الطعن والتنقص، إنما كان دافعهم الرغبة الشديدة في التحرر والتثبت.

١٨ - لم يكن ثعلب (- ٢٩١هـ) نحويًا يستنبط الآراء الجديدة، وإنما كان شارحاً لآراء شيخى الكوفة الكسائي، والفراء.

١٩ - ابن أجروم الصنهاجي (- ٧٢٣هـ) هو آخر من استظهر آراء المدرسة الكوفية في مصنفاتهم.

٢٠ - تتميز المدرسة الكوفية بثلاثة طوابع كبيرة:

- (أ) طابع الاتساع في الرواية، بحيث تفتح جميع المسالك للأشعار واللغات الشاذة.
- (ب) طابع الاتساع في القياس، بحيث يقاس على الشاذ والنادر دون تقييد بندرته وشذوذه.
- (ج) طابع المخالفة في بعض المصطلحات النحوية، وما يتصل بها من العوامل.

وهي مدرسة لا تباين المدرسة البصرية في الأركان العامة للنحو، التي ظلت إلى اليوم راسخة في النحو العربي، غير أنها مع اعتمادها لتلك الأركان، استطاعت أن تشق لنفسها مذهباً جديداً في النحو، له طوابعه، وله أسسه ومبادئه.

٢١ - المدرسة البغدادية ذات نهج قويم يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية

والكوفية، ويفتح الباب للاجتهد والمخلص إلى الآراء المبتكرة.

والمدرسة البغدادية تضم جيلين من النحاة: الجيل الأول غلبت عليه النزعة الكوفية، وهو الذى كان ابن جنى (- ٣٩٢هـ) يعبر عن نحاته باسم «البغداديين»، ويمثل هذا الجيل ابن كيسان (- ٢٩٩هـ) وابن شقير (- ٣١٧هـ) وابن الحياط (- ٣٢٠هـ).

وأما الجيل الثانى فغلبت عليه النزعة البصرية، ويمثله الزجاجى (- ٣٣٧هـ) والفارسى (- ٣٧٧هـ) وابن جنى (- ٣٩٢هـ).

٢٢ - الفارسى وابن جنى بغداديان ينزعان إلى البصرة، وهذه النزعة هى التى سادت منذ النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى، وقد كانا من أهم الأسباب فى شيوعها، إذ كانا ينتخبان من المذهبين البصرى والكوفى مع نزوع شديد إلى البصريين، ومع الفسحة وفتح الأبواب على مصاريعها للاجتهد، ومخالفة البصريين والكوفيين بقدر ما يؤديها النظر وتسعفها الحجة، وهما أبعد النحاة أثراً فيمن تلاهما، فقلماً ظهر بعدها نحوى لم ينضو تحت لوائها مستظهراً لمنهجها، وما أخذوا به نفسيهما من الاختيار الحر من آراء المدرستين البصرية والكوفية، وكذلك من آرائها مع محاولة الاجتهاد والنفوذ إلى استنباط آراء جديدة، وإليها يرجع نسب النحو البغدادي الذى تسلسل فيمن ظهر بعدها كالزنجشري (- ٥٣٨هـ)، وأبى البركات الأنبارى (- ٥٧٧هـ) وأبى البقاء العكبرى (- ٦١٦هـ)، وابن يعيش الحلبي (- ٦٤٣هـ) والرضى الاستراباذى (- نحو ٦٨٦هـ).

٢٣ - ابن جنى هو مؤصل علم التصريف وواضح قوانينه الكلية، وهو الذى عمل على تثبيت قانونى الاشتقاق الأكبر والتضمن.

٢٤ - إن جودى بن عثمان (- ١٩٨هـ)، هو أول نحوى أندلس بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وهو أول من أدخل إلى موطنه كتب النحو الكوفى.

٢٥ - لقد اهتمت المدرسة الأندلسية أول أمرها بالنحو الكوفى اقتداءً بنحويها الأول جودى بن عثمان، ثم التفتت إلى النحو البصرى فى أواخر القرن الثالث للهجرة، ولا نصل إلى ابن سيده (- ٤٥٨هـ) حتى نرى الأندلسيين منغمسين فى النحو البغدادي انغماسهم فى النحو الكوفى والبصرى.

٢٦ - أخذت المدرسة الأندلسية منذ القرن الخامس آراء المشاركة من نحاة البصرة والكوفة وبغداد، مع اجتهد واسع فى الفروع والاستنباطات وكثرة فى التعليقات والاحتجاجات، وكان أئمة تلك المدرسة يأتون فى كل جيل بما لم يسبقوا إليه من الخواطر والآراء.

٢٧ - إن ابن مضاء (- ٥٩٢هـ)، أراد أن يصوغ النحو صياغة جديدة خالية من نظرية العوامل والمعاملات المذكورة، والمقدّرة، ومن العلل والأقيسة المعقّدة.

٢٨ - إن ابن مالك (- ٦٧٢هـ)، هو أكبر أئمة النحو الأندلسي على الإطلاق، ثم خلفه كثيرون كان أكبرهم أبو حيان (- ٧٤٥هـ). وقد كان ابن مالك أمة في الاطلاع على كتب النحاة وآرائهم، وعلى اللغة والشواهد، وكان أمة في القراءات ورواية الحديث. وهو أول من استكثر من رواية الحديث في النحو، وآراؤه مختارة من البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين ومما تفرّد به. وكان رائده السماع وقد تجنب القياس على الشاذ.

٢٩ - عبد الرحمن بن هرمز (- ١١٧هـ) من أقدم علماء العربية بمصر، وأما أول نحوى مصرى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، فهو ولاد بن محمد التميمي (- ٢٦٣هـ).

٣٠ - إن المدرسة المصرية كانت في أول نشأتها شديدة الاقتداء بالمدرسة البصرية، ثم أخذت منذ القرن الرابع الهجرى تخرج بين آراء البصريين والكوفيين ثم البغداديين، وقد بدأ ازدهارها في العصر الأيوبي، وتكامل في العصر المملوكى على يد ابن هشام (- ٧٦١هـ).

٣١ - المدرسة المصرية مزجت المذهبين البصرى والكوفى منذ عصر مبكر.

٣٢ - إن ابن هشام المذكور، صاحب المغنى، امتاز بملكات عقلية نادرة، وإحاطة بآراء النحاة السالفين على اختلاف مدارسهم وأعصارهم وبلدانهم، وقد أوق قدرة بارعة على المناقشة مع طرافة في التحليل والاستنباط وجمال في العرض والأداء.

٣٣ - السيوطى (- ٩١١) كان يختار لنفسه من مذاهب النحويين ما يتجه عنده تعليقه، وذلك هو نهج المدرسة المصرية التى كانت تتخير من الآراء النحوية ما تستقيم حججه وبراهينه.

وينتهى كتاب «المدارس النحوية» بذكر السيوطى بعد أن يؤرخ تسعة قرون من تاريخ النحو العربى، ومدارسه، وأعلامه، وبعد أن يستوفى الدكتور شوقى فيه ذكر آرائه المتصلة بأبرز قضايا تاريخ النحو.

فإذا تجاوزنا «المدارس» إلى «تجديد النحو»، فقد تجاوزنا تاريخ النحو إلى النحو نفسه، وطالعتنا الثمرة العملية التى انتهى إليها الدكتور شوقى بعد نصف قرن من الزمن صاحب فيه النحو والنحويين، دراسة وبحثاً وإشراقاً على الرسائل الجامعية ومناقشة لها، وقد تتبع محاولات التيسير قديمها وحديثها، حتى انتهى فى كتابه إلى اقتراح تصنيف جديد للنحو ينسق فيه أبوابه تنسيقاً جديداً مستفيداً فى تطبيقه من سبقه من القدماء، والمحدثين، ومضيفاً إليه ما رآه لازماً لتدليل النحو وتبسيطه، وتمثل قواعده واستكمال نواقصه، أملاً فى أن يكون الكتاب نهجاً

جديداً في ميدان النحو التعليمي، والتأليف فيه. وهو كتاب جادٌ جديرٌ ببحث مستقل ودراسة مستفيضة.

على أنه أياً كان الرأي في محاولة الدكتور شوقي تجديد النحو، وسواء أوافقناه على آرائه التي عرضها فيه كلها أو بعضها أم لم نوافق، فالذي لا شك فيه أن «تجديد النحو» عنده ثمرة اجتهاد طويل وعمل دؤوب وإطلاع واسع، وإن طابعه فيه الصدق في العمل والإخلاص في النية والعزم في إنفاذ الرغبة. وقد كان الدكتور شوقي ضيف في دراساته النحوية كما كان في مؤلفاته كافة باحثاً نقاداً، لا يكتفى بالجمع والعرض أو بالسرد والوصف، ولكنه يستوعب القديم ليتخذ منه تكة إلى إبداع الجديد. إن «الجديد» عند الدكتور شوقي ضيف ليس لقيطاً ولا منبتاً، ولكنه وليد جديد شرعى موصول بالنسب، يجمع الطرافة والتلادة معاً.

وبعد:

فما عرفت أستاذي الدكتور شوقي ضيف محباً للمديح، ولكنني عرفته محباً للوفاء، وإن من بعض الوفاء أن أقول له اليوم: هنيئاً لك هذه الثروة الفكرية الضخمة، التي أودعتها عشرات الكتب التي تفخر بها المكتبة العربية، وغرستها في عقول أجيال من الطلاب الذين تخرجوا بك، وانتشروا في أرجاء الوطن العربي وجامعاته، يحيون ما قبسوه منك من خلق وعلم. وجزاك الله خيراً كفاء ما ذاع بك من علم، وما عمّ بك من نفع.

أ. د. هازن المبارك

أستاذ النحو العربي

كلية الآداب - جامعة دمشق